البنيوية وقواعد التحليل اللساني

أ.د. عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

1) البنيـوية

1 – 1) أي شيء هي البنيوية ؟ يظهر أن طرح تساؤل حول مفهوم "البنيوية" structuralisme في مطلع الألفية الثالثة هذه لا يخلو من غرابة أو خجل، لأنه لم يعد مباحاً لنا في هذه المحطة التي وصلت إليها أن نفكر في مجرد تعريف لها وقد نبذتها اتجاهات لغوية واجتماعية وأنثروبولوجية وفنية هنا، وعصرتها اتجاهات أخرى عصراً كله تقدير وإعجاب، لتتفنّن في مدحها وتتشعب في محاولة تطبيقها حتى في العادات والتقاليد والثقافات الشعبية، بَلْهَ اللسانيات العامّة والتعليمية.

ومن جهتنا يجب أن نتحلّى بالموضوعية والاعتراف للمشرئبّين إلى هذا الموضوع بأننا مازلنا لم نلمّ إلماماً علمياً بحيثيات هذه الظاهرة، وفي أحسن الأحوال لا تعدو إحاطتنا بها أكثر من خدوش سطحية بين نقدتنا ولسانيينا الذين كان يفترض فيهم أن يكونوا أساتذتنا وقدوتنا، وما على الأجيال اللاحقة إلا أن تنطلق من حيث انتهى هؤلاء، وذلك على الرغم من بعض الإطلالات التي أمدّنا بها لسانيون عرب في هذا المجال.

إن لسانياتنا العربية المعاصرة بقدر ما تشكو عَوَزًا كبيراً في إبداعاتها القديرة حتى تتقاطع مع ما يشرق عليها من نظريات خارجية بين كل فينة وفينة فإنها لا تبرح راضية بتبعيتها إلى ما يبتكر في سماء أمريكية وأوروبية، وأحسب أن هذه التبعية ليست بدعاً مما نعرف من تبعيات أخرى تكاد تكون شاملة.

إن اللسانيات الجديدة، ومنذ أكثر من قرن، غدت علوماً عامة كأي علم من علوم الطبيعة والذرة والاجتماع، ... ومن ثم فإننا لا نخجل من أن نتعانق مع أي نظرية لسانية تبتكر هنا أو هناك شريطة أن نهضمها ونقرّبها بأقصر الطرق الممكنة والأقل تعسفاً.

1-1-1) هضم المصطلح: ومع ذلك، فإن هضم نظرية لسانية جديدة أو قديمة يقتضي أولاً، وقبل أي شيء، هضم مصطلحاتها، والإشكال الأكبر فيما نرى، لا يمكن في هضم المصطلح في حدّ ذاته بقدر ما يكمن في تباعدنا واختلافنا في مفهومه الواحد الأوحد.

هل أجد نفسي مبالغاً إذا ادَّعيت أنّ أكثر من سبعين في المائة من المصطلحات اللسانية الجديدة مختلف فيها بين اللسانيين العرب المحدثين؟ أي ليس ثمة إلا زهاء ثلاثين في المائة مما يمكن أن نتواصل به، بعبارة أخرى لا يوجد بيننا تفاهم عامّ.

إن اللسانيات الجديدة بنت نفسها بناء جديداً بقوالبها ومصطلحاتها وأصبح لها قاموسها الداخلي الخاص بها كأي قاموس فيزيائي أو طبي أو رياضي، ... ولا يمكن لأي مغامر، يريد أن يلج عالمها، أن يدخل من غير أبواب كلماتها التي تعدّ بالمئات بل بالألوف.

ولعله من حسن حظ هذه الكلمة أن المصطلحات التي توظَّف في حقل البنيوية أقل المصطلحات اختلافاً بين الناس، لأن اختلافها مرتبط بشيء من الصرامة تبعاً لكل مدرسة لسانية، ومع ذلك فإن ترجمتهما عندنا يظل مشوباً بغموضات لا يخلو بعضها من غرابة وبعد عن المعنى الأصلي للمصطلح في مدرسته الأم.

2-1-1) شبح البنيوية: ولعل طغيان شبح البنيوية جعل يسود الحقول الدراسية، يوم بدأت اللغة، ومع مطلع القرن العشرين، تتعامل مع المنظومة اللغوية تعاملاً علمياً – أي موضوعياً – لا تعاملاً فَقلِفِيًّا (معيارياً) معتبرة اللغة هدفاً دراسياً في حد ذاته لا وسيلة أومطية تُمْطَى للوصول من خلالها إلى معارف أخرى، مؤكدة أن اللغة ليست إلا نظاماً قائماً بذاته، بل نظام أنظمة بالتعبير الديسوسوري الشائع، وأما الدراسة المعيارية فتتنافى مع اللغة كنظام لكونها تلتفت إلى التاريخ في كل حال من أحوالها، مع أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، فضلاً عن أنه لا ثبوتَ في اللغة إلا الثبوت الآنيّ.

وكانت هذه النظرة إلى اللغة على هذا النحو الجديد فتحاً معرفياً لفت فضول الدارسين حتى في مجالات غير لغوية، لأن أية ظاهرة من الظواهر الثقافية أو الاجتماعية بدائية كانت أم حضارية إلا ويمكن اعتبارها أيضاً نظاماً قائماً بذاته، ومن ثم فهو يشكّل في تواصله الاجتماعي والثقافي نظام أنظمة مِثْلُه مِثْلُ اللغة، مما جعل هذه الدراسات تفيد الشيء الكثير مما طفا من نظريات لسانية حديثة.

أقول، غدت اللسانيات الحديثة في مجملها تنظر إلى العناصر اللغوية من أفعال وأسماء، وحروف، وظروف، وصفات، ولواحق، وسوابق، ... والتي تركَّب في أي خطاب، على أنها لا تركَّب بدون قصد أو من قبيل الحرية، ورأت أن كل عنصر في تركيب لغوي لا يُدْرَك بمعزل عمّا يصحبه من عناصر أخرى، وهي كلها تؤلف بنية واحدة، فضلاً عن كون أي عنصر لا يكسب قيمته الحقيقية إلا بالنسبة لسائر العناصر كلها، فإذا كان روائي يفتتح روايته: "الساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف (1)، لقد تأخرت نصف ساعة عن الموعد (2)، بدأت أشك في أنها ستحضر (3)، أشعلت سيجارة (4)، ونظرت إلى الشارع من خلال زجاج النافذة الصقيل (5)، السيارات قليلة على غير العادة (6)، ربما لأن اليوم عطلة نهاية الأسبوع(7)، الناس يفضلون الذهاب إلى الطبيعة(8)، آخرون يلزمون

بيوتهم (9)، أنا اخترت أن أعقد موعداً في هذا اليوم (10)، وفي هذه الساعة بالذات (11)...".

فهل يعني أن التراكيب الأحد عشر السابقة تشكل إحدى عشرة بنية أي بنية واحدة ؟ من الناحية اللسانية لا نجد بنية واحدة تتشابه مع بنية أخرى بصرف النظر عن كونها اسمية أو فعلية، وبصرف النظر عن الضمائر والأزمنة، وعن كون بعضها جملاً نواتية phrases noyaux أو جملاً أو موسّعة، وأما ورود وحدة لسانية متكررة مثل "الساعة" فلا تشير إطلاقاً إلى تناوب الشيء نفسه، ففي(1) تشير إلى آلة قياس الزمن، وفي (2) تشير إلى جزء من الزمن نفسه، وفي (11) تشير إلى وقت الموعد (الرابعة مساء)، ...

3-1-1) لا يجمع البنيات جامع واحد: لا يَجْمَعُ البنياتِ اللسانيةَ جامع واحد متماثل كلياً، وإلا اختزلنا الكل في بنية واحدة وارتحنا وأرحنا، بمعنى أن المنظومة اللسانية مجال مفتوح أي ليست حكراً على تركيب دون تراكيب أخرى، وما نتلقاه نحن كقراء يختلف اختلافاً جذرياً عما نتلقاه كمبدعين (كُتّاب)، فالنص متماثل لنا كقراء خارج المنظومة اللسانية، لأننا نسهم في تهجّي أصواته واجترار معانيه دون الإسهام في بنائه، وانفتاحه علينا وشفافيته معنا لا يعنيان في كل حال أننا جزء من كيانه وإبداعه.

وإذا ما وُصِفت اللغة بأنها لا تعدو أن تكون أكثر من اختلافات وتباينات في أصواتها وعناصرها وتراكيبها، فإن الظاهرة نفسها تنسحب على جملها وفقرها ونصوصها، تتلاعب بها وقائعها السانتكسية، والمورفولوجية والفونولوجية، والدلالية "لا وجود في اللغة إلا للاختلافات، ومن غير حدود إيجابية، وإذا ما اتخذنا الدال والمدلول، فإن اللغة لا تتضمن أفكاراً، ولا أصواتاً تسبق المنظومة الألسنية، بل اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة وحسْبُ، عن هذه المنظومة، وما يوجد في علامة ما، من فكرة معينة، من مادة صوتية هو أقلّ أهمية مما يوجد حولها في العلامات الأخرى، ... غير أن الواحدة

والواقعة النحوية ليستا سوى اسمين مختلفين لتعيين مظاهر لواقعة واحدة عامة هي لعبة التقابلات الألسنية"[1].

لو تابعنا الجمل والتراكيب التي ترد في نص إبداعي أصيل لما وجدنا فيه بنية وهي قائمة بأركانها، غير أن بنية تِلْوَ بنية، ... يؤول في النهاية إلى بنية واحدة لا بنيتين، لأن كل نص لا ينبغي أن تقابله إلا بنيته نفسها، وإلا كان شبحاً لقيطاً لا جنس له، لأن أحداً منا لا يتصور أن يكون لقصيدة أو قصة أو رواية نصَّان إلا إذا تصور أن لكل واحدة منها شاعريْن أو قاصيْن أو كاتبيْن.

وإذا ما قُدِّر أن يَحْدُث تَشَابُهٌ من باب ما يُسَمَّى تَوارُدَ الخواطر أو السطو على إبداع الآخرين من ناس خُلقوا لغير الإبداع، فإنه يمكن قياس العملية وتقديرها مضاهاة بالعلامة بين وحدتين صوتيتين بكون العلاقة بينهما إما تفاضلية:

وَلَـدٌ ≠ بَلَد، عـام ≠ نـام، ...

وإما تبادلية:

ثور رِفَلّ ≠ ثور رِفَنٌّ

وقفت فيها أصَيْلاَناً = وقفت فيها أُصَيْلاَلاً

ليس من البرّ الصيامُ في السفر = ليس من مْبِرّمْصِيَامُ فِي مْسَفَرِ

وفي هذا المقام، فإننا لا نتجاهل البون الشاسع بين البنية في سياق عناصرها اللسانية العليا والدنيا، والبنية ذاتها في سياقها الخطابي، ومن ثمّ فإنه لا يَغْرُبُ عنا مستويات أخرى قد تكون بريئة كل البراءة كالتناص العفوي وتوارد الخواطر، ولكن هذه الالتفاتة لا تحول دون معرفة ما هو تفاضلي مما هو تبادلي بين الإبداعات التاريخية أو المتزامنة أو ما بين ذلك، أي لا يحول دون استثمار اللسانيات الجديدة لفرز ما هو أصيل مما هو دخيل أو لقيط في إبداع فني أو أدبي، وكم كان حازم القرطاجني (684هـ) بصيراً، وقد أشار وهو يعالج المعاني القديمة المتداولة أو الجديدة المخترعة: "فإذا تساوى تأليفا

الشاعرين في ذلك، فإنه يسمى الاشتراك، وإن فضلت فيه عبارة المتأخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق لأنه استحق نسبة المعنى إليه بإجادته نظم العبارة عنه وإن قصّر فيه عمن تقدمه فذلك الانحطاط"[2].

1 – 2) البنية اللسانية والتحليل

1-2-1) البنية اللسانية: البنية اللسانية التجريد الذي لا يعيّن مسَبَّقاً وقائع لسانية إلا من خلال شبكة العلاقات للتعارض المتمايز بين العناصر التي تسمح للغة بأداء وظيفتها الأساس، والتي هي وظيفة تبليغية، ولكي يكون ثمت فعلاً تجريد، فإن البنية اللسانية ينبغي ألاّ تكون خلقاً من الفكر، بل منبعثة أو مستخلصة من اللغة، وأما العلاقات داخل البنية فيجب أن يكون كلّ عنصر يُحْتَفظ به بحيث ألاَّ يمكن له أن يكون إلاّ كما هو ومن خلال علاقته بالعناصر الأخرى، وإذاً فتوجد هناك بنية في حالة ما إذا كانت التباينات بين الوحدات تتعارض فيما بينها مُظْهِرة قيمها المتمايزة، وهكذا فإن البنية لا يمكن لها أن توضّح كل الظواهر التي تؤلّفها لغة، وإذا كانت بنيات المجتمع أو بنيات التصرفات لمتكلمين لها تأثير على اللغة، فإنها تبقى ثانوية بالقياس إلى وظيفتها التبليغية. وتعريف اللغة عموماً كبنية يضطرنا أن نأخذ بعين الاعتبار كل أنماط البنيات التي يمكن أن تشترك فيها، ويجب تقديمها على عكس ذلك، حسب اقتراح هلمسليف، كـ"كُنْه entité مستقل عن التبعيات الداخلية". فالمفهوم الوحيد للبنية المؤسَّس على الطابع الوظيفي للتبليغ هو ما يُجْمِل حُجَّتَيْ هلمسليف: استقلال، و"تبعيات داخلية".

1-2-2) تَصَرُّفُ البنية اللسانية: وعملياً، فإن تخليص البنية من اللغة وهي تُمَارَس في أي ناحية من نواحي السلسلة الكلامية أو الخطية، لا يخرج عن إطار التبليغ، فإذا قلنا: عاد/زيد/منتصراً، فإننا نخلّص on dégage أو نسْحب ثلاث وحدات دلالية، حيث إن التبليغ في هذا المستوى غير ممكن إلا بهذه النواحي الثلاث أو المقاصد الثلاثة: عاد، زيْد، منتصراً. ولمواصلة كل المستويات، فإن

هذه العملية تحدّد علاقات التعارض البراديغمي (الاستبدالي) بين العناصر الممكن أن تكون مُدْرَجَة في المقصد أو المتَّجَه نفسه في السلسلة:

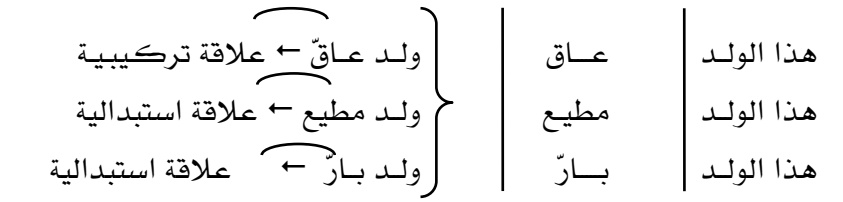

أي أن علاقات التضامن تتضح تراتبياً عبر مستويات التحليل المتباينة تحت شكل العلاقات التركيبية والاستبدالية، وهذا المذهب الساعي إلى تعويض المذهب الذرّي atomisme الذي كان يقول إن المادة مؤلفة من جواهر فرْدَة، وأن الأجسام تتكون وتفسد باجتماع هذه الجواهر وافتراقها، وَجَدَ صَدىً في نظريات حلقة براغ 1929 وفي الملتقى الدولي اللساني في لاهاي عام 1930، حيث مصطلحا بنية structure وstructural وبنيوي ظهرا لأول مرة، إذ قال تروبسكوي "النظام الفونولوجي ليس المجموع لفونيمات معزولة بل هو التنظيم كله، والفونيمات ليست إلا أجزاء منه، وبنيته خاضعة لقوانين"(3) وهكذا نرى، أن البنية استعملت أول ما استعملت في حقل الفونولوجيا لتتوسع لاحقاً على مستويات لسانية أخرى، وأما بيرو BIROU فعرّف البنية عام 1966: "كيفية أقسامها المختلفة التي تؤلف الكلّ، يُنَسَّق الواحد منها مراعاة للآخر"(4)، وهذه الأقسام ليست معرَّفة بوساطة طبيعتها الخاصة، بل عَبْرَ العلاقات المختلفة التي تربطها، وهنا يؤكَّد على العلاقات والشكل، أو عَبْرَ الوظيفة التي تؤدّيها في الكلّ، دون إغفال الوظيفة، ومن ثم فإن البنية تنظيم شكلي أو وظيفي، وهذا ما ترك غموضاً يغطي هذه الكلمة إلى عصرنا، فعلى مستوى الفونيمات فأن فعالية الإبدال commutation حجة دامغة فعلاً، لأنها تسمح بتحديد الطابع البنيوي لعلاقات التعارض، أما على مستوى المونيمات في

حقل العلاقات السيمنطيقية، فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة لاستخلاص أنظمة مقفلة Clos، باستثناء الحالات المتمتعة بالامتياز كما في كلمات القرابة Parenté والأعداد، ولذا، كما يقول جورج مونان، لا يوجد حتى الآن علم دلالة بنيوي حقيقي، وأما ڤريماس فيذهب إلى أبعد من هذا[5].

3-2-1) البنية على مستوى الأسلوبية: وعلى مستوى الأسلوبية فإن البنية تصرّف أو حالة أو هيئة أو تنظيم... راسخ fixe إلى حد ما، أو هي بنية خاضعة لبعض القوانين لملفوظ أو جزء من ملفوظ، وهذا النوع من البنية موجَّه بوساطة التعابير "بنية الجملة"، "بنية سونيّة sonnet (قصيدة من 14 بيتاً)"، بنية رواية تشرُّدية picaresque"، وهذه نزعة، وإلا فإن طابع نصوص أدبية، اللغة فيها أكثر مُبَنْيَنَة أو بوجه آخر مُبَنْيَنة وحسب في الاستعمال اليومي، والكلمات غالباً ما تأخذ معنى جديداً[6].

وفي الإطار نفسه لنتصفَّح كلمة "connotation" التي استعملتها المدارس الفلسفية الشهيرة في العصر الوسيط (مدرسة سكولاتيك scolatique) حيث سادتْ فلسفة أرسطو في التدريس، والتي كانت تتعارض مع dénotation (دلالة ذاتية)، وكانت connotation تعني منطقيا المفهوم المرافق للمفهوم الأصلي، أي دلالة إضافية، بينما صارت تعني لسانياً ظِلاً للمعنى، أي دلالة غير مباشرة كأن يعبّر المرء بما تقتضيه الكلمة من معانٍ، ويرى لسانيون أنها كانت مرادفاً للنية أو القصد أو الفهم، وكانت تعرَّف كمجموعة من سمات جوهرية للتصوّر وأصبح connotation (التضمين أو المفهوم المقترن) يتعلق لاحقاً بمجموعة من القيم الفعلية لعلامة، ولفعل غير دلالي ذاتي يظْهر على المتكلم أو القارئ، أو لا يتعلق بأيّ ما من شأنه أن يستدعي évoque، أن يوحي suggérer، أن يهيِّج أو يحرّض exciter، أي يشرك أو يورّط impliquer بشكل واضح أو غير صريح والمقولة الأخيرة لأندري مارتني[7]، ويُعْطى مثالاً لذلك أننا نحس جيداً إذا كانت كلمة muraille (سور) لا تشير إلى صنف من الأشياء التي لا تتوافق ne

coïncide pas مع الدلالة الذاتية للجدار، فإن الفرق مع ذلك يَسْتَحِقّ أن يشار إليه بأنه محمول على التأويل الحسن بالنسبة للفعل الحاصل من قبل الكلمة ولكننا حين نتناول التضمين الذي تقترن فيه معانٍ بلفظة ما، فإننا نمس حقولاً من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي أو الفردي، وعليه فإن اللسانيين يظهرون في أكثر الأحيان متحفظين.

4-2-1) البنية مجموعة من المسلَّمات اللسانية : وعموماً، فإن البنية مجموعة من المسلمات اللسانية، وبدءاً من ميزة أو طابع معين، نستطيع أن نكوّن نظاماً مُرَتَّباً من القواعد الممكن وصَفُ العناصر ووصف علاقتها في الآن ذاته إلى درجة محدَّدة من التعقيد.

ويظل تصور البنية إذ ما رجعناه إلى مختلف البنيويات صعباً تعريفه، مما يجعل هذه الإحالة ضرورية على مختلف المدارس ومقارنتها بالاشتراك.

وعلاوة على ما أشير إليه أعلاه، فإن البنية قبل أي شيء نظام يشتغل وفق قوانين (بينما العناصر ليس لها إلا أولويات) والتي تدوم أو تُثْرى بحكم هذه القوانين نفسها دون إسهام لعناصر خارجية أو بدون وجوب ممارسة فعل على عناصر خارجية، وبمعنى آخر، فإن البنية نظام مميَّز بمفاهيم الكلية والتحويل والانتظام الذاتي autorégulation، وكل البنيويين متفقون على مقابلة البنيات بالركامات أو التراكمات، بالنظر إلى أن هذه الأخيرة مؤلَّفة من عناصر مستقلة على الإطلاق، وهكذا نضع إلى الأمام في حسباننا الكلية كطابع لأية بنية، ومن ثم فإن العناصر التي يمكن لها أن تشكّل البنية هي إذاً مُحْكَمة régis بوساطة قوانين مُمَيّزة للنظام بوصفه كما هو، والذي يُضفي على الكلّ كافة خصوصياته. أي البنية لا تُعَرَّف بعناصرها المؤلفة منها بل بعلاقة بعضها ببعض في إطار المجموع.

ومما هو معلوم أن نظام اللغة المسلَّم به في فترة معطاة بعيد ليكون ثابتاً immobile، وكل البنيات المعروفة أنظمة تحويلات إما غير مقيدة بزمن، وإما زمنية.

1-2-5) البنية والبنيوية: وبصدد البنية والبنيوية، فإن دي سوسور لم يستخدم كلمة "البنية" بل كلمة "النظام" الذي يشير إلى القوانين التي بمقتضاها تنتظم اللغة، وإنما ظهر المصطلح لأول مرة –مثلما أشرنا- في مؤتمر فقهاء اللغة السلافيين عام 1929 في براغ، وظهر المصطلح في العمل المنشور بهذه المناسبة من قبل جاكبسون وكارسفسكي KARCEVSKY وتروبتسكوي TROUBETZEKOY، وكانت تحيل بدقة إلى أن اللغة بصفتها نظاماً لا يأخذ عنصر فيها قيمته إلا من خلال علاقات الارتباط المتبادل وعلاقات التشابه والتعارض الذي يتعهّد مع العناصر الأخرى في النظام، مثلاً: يوجد ارتباط متبادل interdépendance بين M في "masse كتلة" وP في "passe" لأن الأمر يتعلق بصامتين شفويين bilabiales يتعارض في هذه الأشياء فيما بينهما، حيث P صامت مهموس sourde وM صامت أنفي خيشوميّ أو أغنّ nasale، ونتيجة لهذا، فيمكن الحديث هنا عن علاقة بنيوية بين هذين العنصرين اللذين يَسِمَانِ الفرق بين التركيبين syntagmes "masse" و"passe".

1-2-6) البنية نظام داخلي: وكما نرى، فإن البنيوية تنصّ على أن اللغة يجب أن تُدْرس قبل كل شيء من وجهة نظر نظامها الداخلي، وكان سوسور أشار بدقة ووضوح إلى الفرق بين اللسانيات الخارجية والداخلية ضارباً المثل بلعبة الشطرنج التي دخلت أو روية من فارس فهي ذات نظام خارجي، وكل ما يتعلق بالنظام والقواعد فهو ذو طابع داخلي.

وكلمة بنيوي structural المستعملة في العلوم الإنسانية ولاسيما في اللسانيات، تحيل إلى واقع تجردي أي إلى واقع يمر حتماً عبر سيرورة مَفْهَمية أو

تصوّرية، والبنية بهذا المعنى تُدْرَك كمجموع منظَّم من روابط ونظام من علاقات المبادئ العامة للتحليل البنيوي.

1 – 3) المبادئ العامة للتحليل البنيوي

1-3-1) بين بنيوي structural وبنائي structurel[8] : يجب أن نعمل على التمييز بنيوياً ما يخص كلمة structurel وكلمة structural، فالأولى تعني كل شيء ملموس لتنظيم، مثلاً على المستوى السوسيو- الاقتصادي (الهياكل les infrastructures) والسياسي، والقانوني، والإيديولوجي أو أكثر على مستوى التنظيم المادي كل ما له صلة بالإنشاء المادي لمجموع خاص، وكذلك الأقسام المختلفة لآلة أو صَرْح أو جسم بيولوجي،... وبهذه المناسبة يشار هنا إلى أن كلمة structure (بنية) تختص بالحقيقة المادية وتكوينها وتنسيقها وتلاحمها sa contexture، وعلى العكس من ذلك، فإن كلمة structural المستعملة في العلوم الإنسانية وخاصة في اللسانيات تحيل إلى حقيقة تجريدية réalité abstraite أي إلى حقيقة تمر بالضرورة عبر تصورية أو مَفْهَمِيَّة conceptualisation.

1-3-2) تعريف لالاند البنية: وعرّف لالاند LALAND البنية بقوله: "البنية كل شكل من أشكال الظواهر المتضامنة بحيث إن كلاً منها يتبع أخرى ولا يكون إلا بعلاقته مع ما يجمعه بالعناصر الأخرى"، وهلمسليف الذي سبق لنا أن أشرنا إليه يذهب إلى أنّ "اللسانيات البنيوية مجموعة من الأبحاث تقوم على فرضية يحسبها أنه بات شرعياً وعلمياً أن نصف حتماً اللغة كحالة كُنْهٍ مستقل عن تبعيات داخلية، وباختصار بنية"[9]، ومن ثَمَّ يمكن القول إذاً على سبيل المثال إنّ structural خلافاً لـ structurel غير ممكن إدراكها مباشرة، ولننفذ إليها، فإنه من الضرورة أن نُجري بعضاً من البراهين التجريدية، كما هو الحال مثلا في إنشاء النماذج التي تقرّر اللسانيات فيها أن نموذجاً un modèle ما هو إلا

إنشاء أو بناء أو تركيب نظري يسمح بدقة ووضوح بتفسير ظاهرة تَحْدث في اشتغال اللغة le fonctionnement.

ويعترف لسانيون بأن لفظة structurel ما يتعلق بالبنية la structure لكنها تُسْتَخْدَم تارة بوصفها مُعَادِلَةً équivalent، وتارة أخرى باعتبارها متميِّزة distinct عن "البنيويّ"structurel، فالاستخدام بالمفهوم الأول نجده –مثلاً- في النحو التوليدي الذي من أحد أهدافه أنه يعزو إلى كل جملة وصفاً بنيوياً (حسب رويت Rewet) أو وصفاً بنائياَ structurelle (تبعاً لـ: ليون Lyons)، وأما الاستخدام بالمفهوم الثاني، فيشَار به إلى نَعْت المنهج، مثال ذلك أن اللسانيات البنيوية تدرس الظواهر البنائية (المتعلقة بالتركيب اللغوي) التي تنتمي إلى البنية كما هي(10).

ومما لفت انتباهي عفوياً، وأنا أتَتَبَّع هذا المفهوم للفظة بنية أنّي وجدت بعض المعاجم العربية تعرّف البنية بقولها: "البِنْيَة الهيئة التي بُنِي عليها"(11)، بل وقفت فيها على أعجب من هذا، حيث أطلق بعضها "البُنْية" (بضم الباء) على كل ما يتعلق بالمعاني و"البِنية) (بكسر الباء) إذا ما أريد بها المحسوسات: وهذا التمييز، فيما نرى، أوضح مما مُيِّز أعلاه بين structurel وstructural، إذ يمكن أن نطلق البنية (بضم الباء) على البنية اللسانية التجريدية، والبنية (بكسر الباء) على كل ما هو هيكلي ظاهر للعيان.

1 – 4) قاعدة الملازمة أو المثولية Règle d'immanence

1-4-1) ما هي قاعدة المثولية؟ المقصود بهذه القاعدة أنها تشير إلى أن حالةً أو وضْعَ كائنٍ أو عُنْصرَ كائنٍ مثولياً في كائن أو عنصر آخر، وما أعظم سيبويه الذي أشار بطريقته البنيوية الخاصة إلى القاعدة من خلال المسند والمسند إليه "وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بُدًّا فمن ذلك الاسم المبتدأ أو المبنيُّ عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول

بدّ من الآخر في الابتداء"[12]، وقول سيبويه يكاد يتداخل بقول دي سوسور: "اللغة نظام لا يعرف إلا ترتيبه الخاص"[13]، وقول سيبويه يشير أيضا إلى الفرق بين ما هو خارجي وما هو داخلي بالنسبة للبنية اللسانية.

على أي حال، قاعدة المثولية ترى أنه من الضروري أن نستبعد من الدراسة اللسانية كل ما لا يرجع جوهرياً intrinsèquement إلى اللغة بذاتها، وعرّف أحد اللسانيين (J.B.FAGES) قاعدة الملازمة بقوله: "قاعدة الملاءمة تستلزم أن التحليل يأخذ مكانه في الموضوع l'objet لدراسة الوظيفية والتي تتخلى عن مناهج أخرى ذات كل اعتبار إزاء العالم"[14] أي نخرج الدراسة اللسانية من الطابع الفلسفي الذي عادة ما يدخل عوامل خارج اللغة، على الرغم من أن معظم المؤلفات المدرسية في القواعد النحوية لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا تصنيفات تعود إلى نحاة العصر القديم، مثلا تصنيفات les classes الأفكار تتطابق مع تصنيفات الأسماء، والاسم le substantif يحيل إلى "الماهية la substance" كائنات وأشياء، والنعت إلى خاصيّات، والفعل إلى حصول أعمال، ... وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن كتبنا المدرسية لم تستفد بعدُ من أعمال لسانية بنيوية مؤسسة على قاعدة المثولية التي ترى بحسبها أنّ الأمر لا يتعلق بالبحث خارج اللغة وتبريرات وتفسيرات موضوعها.

وبوجه آخر قد يكون أكثر تقريباً أن قاعدة المثولية l'immanence (حالة كائن ماثل في كائن آخر) في اللسانيات البنيوية، وخاصة في اللسانيات النسقية، كلّ تحرّ لساني يسعى إلى تعريف بنيات موضوعها من خلال العلاقات الوحيدة لعبارات داخلية لهذا الموضوع، وهكذا، فإن النسقية glossématique مثلاً تسمَّى ماثلة immanente، بدعوى أنها وظيفية بنيوية أي تدرس العناصر اللسانية تبعاً لوظيفتها المنوطة بها في بنية الخطاب، أو بعبارة أخرى، لأنها تقصي كل الانشغالات المسمّاة رفيعة أو عظيمة لإضفاء استعلاء مجّاني لها لا يمتّ بصلة حقيقية إلى الشيء نفسه، ما عدا الماورائيات الميتافيزيقية.

2-4-1) متى تكون البنية ماثلة؟ ويقال أيضاً البنية إنها ماثلة عندما يمكن أن تُحَدَّد بوساطة العلاقات الوحيدة لوحدات فيما بينها، فالبنية الفونولوجية في لغة تُعَيَّن بالتقابلات بين فونيماتها بمعزل عن أي إحالة إلى الماهية الصوتية، وإلا انحصرت لغتنا في بنيات لا تعْدوها، ولذا لم يقل دي سوسور عبثاً: "لا وجود في اللغة إلا للاختلافات"[15]، بل مثلما تتعارض الفونيمات تتعارض المونيمات (أدنى وحدة لغوية دالّة)، ومثلما تتعارض هذه الأخيرة تتعارض التراكيب، والجمل، والنصوص، ... لا شيء يشبه بعضه بعضاً أو يكرّر نفسه لمجرد لذة أو تبهيج، بل يمكن أن نذهب بعيداً، حتى ولو كان هذا غير مناسب هنا، إلى الزعم بأن كل حركة من حركات شخوص قصة أو رواية ليس أكثر من تعارض فونيمات في لغة، وكل حركة بطل رئيس ليس أكثر من جملة معقدة، وكل حركة عناصر ظلية ليس أكثر من تراكيب وجمل ثانوية وسوابق ولواحق، ... كل حركة لا تشبه الأخرى، ولو صدرت من شخص واحد مرات لا نهائية، وما يميز جنساً فنّياً ما يمكن في ذلك الكل الذي يلحّمه والفرق بين جنس وجنس بل على مستوى مجال جنس بذاته هو ما يبلور هيئته وهويته بفضل حدود وفواصل الاختلافات، وإلا كنّا نقول الشيء نفسه.

ويؤكّد هلمسليف أنّ الدراسة الماثلة للغة ترفض التدخل لظواهر وتفسيرات خارج اللغة مكتفية بالشيء المعطى نفسه المحدِّدِ لطبيعته، وكل لجوء إلى مواد أخرى، لا يُعَدّ من وجهة نظر لسانية إلا رجوعاً إلى شكل من أشكال الوقوع وراء نطاق المعرفة أو التجربة[16]، ويُسَجَّل على المثولية ثلاث ملاحظات:

3-4-1) إرساء المثولية: كان دي سوسور أول من أرسى مبدأ المثولية لتعزيز استقلالية اللسانيات في موضوعها كما في منهجها، ومثلما نتمكّن من دراسة قواعد لعبة الشطرنج دون معرفة أصولها وتطورها التاريخي، ودون الاهتمام بالمادة التي تكوّن قطعها، فكذلك يمكن للّساني أن يدرس وظيفية أو اشتغال

اللغة دون طلب العون بالمؤرخ والفيلسوف، ودون الاستعانة أيضاً بمادة مثل الفيزياء أو الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء).

1) أصل المثولية ظهر تاريخياً في اللسانيات (لكن بكيفية غير لازمة ولا حصرية) مربوطاً بالبنيوية بإعطاء الأهمية إلى المدونة (مجموعة ملفوظات مكتوبة أو مسجَّلة تستخدم من أجل الوصف اللساني).

2) أبْعَدُ من ذلك وخارج البنيوية، فإن علة المثولية اليوم غدت شيئاً مُزَعْزَعا إما بوساطة النحو التوليدي، وإما عَبْر موادّ مفصّلة جديدة (علم النفس اللغوي، علم الاجتماع اللغوي) أعادت إقامة جسور بين اللسانيات واللسانيات الماورائية، وعلى أقلّ تقدير، اكتسحت اكتساحاً معتبراً ميادين اللسانيات.

1 – 5) قاعدة الملاءمة Règle de pertinence

1-5-1) ما هي قاعدة الملاءمة؟ هذه القاعدة من القاعدة السابقة تماماً إنها ترتكز على أنْ تحدّد بكيفية صارمة الطابع النوعي لمادة من منطلق أن كل علم يفترض الاختيار لوجهة نظر خاصة، فالأشياء الوحيدة التي لها صلة وثيقة أو ملائمة للحساب والأعداد، وفي الهندسة الأشكال، وفي المِسْعَرية alorimetrie، درجات الحرارة على حد تعبير أندري مارتني، وعليه، فاللساني يجب أن ينطلق دائماً من وجهة نظر بحثه الخاص تبعاً لعدد من المعايير أو المميّزات العلمية الملائمة pertinents.

فقاعدة الملاءمة التي تعني إذاً كل كائن أو عنصر له صلة وثيقة بكائن أو عنصر آخر، مما يقرّبها من قاعدة المثولية، تنطبق على كل مستوى من مستويات التحليل البنيوي كالمستوى المورفولوجي، والفونولوجي، والدلالي والسانتكسي... وللساني الحق في تطوير تحليله الذي يراه ضروريا للوصول إلى مشروعه، والأهم أن تكون هذه المستويات معيَّنة تعييناً كاملاً، وأن يكون كل واحد منها محلَّلاً انطلاقا من معاييرَ ملائمة pertinents.

ويضرب أندري مارتني أمثلة توضيحية للعناصر التي يمكن أن تدخل من العناصر التي لا يمكن لها أن تكون كذلك بالنسبة للملاءمة اللسانية: "مهندس الصوت l'acousticien والفَسْلَحي le physiologiste يمكن لهما أن يدرسا حقيقة الصوت أو حقيقة الأعضاء الباثة للصّوت، ليكن كسْر une fraction كيفما كان لسلسلة كلامية، فإننا نستطيع أن نعتبره كظاهرة فيزيائية وكتتابع للارتجاجات التي يسجلها مهندس الصوت بفضل آلاته التي يشخّصها بمدى ما يوجد من تردّد وسعة الاهتزاز، وسيكون بمقدور فَسْلحي physiologiste أن يفحص المحصول، فيدوّن أي الأعضاء يدخل في اللعبة وبأي كيفية، وما ينهض به مهندس الصوت والفسلجي يساعد على الأرجح في تسهيل مهمة الوصّاف le descripteur، ولكن سوف لا يكون لهم تمهيد لعمل اللساني ولو لِلَحْظَةٍ واحدة، لأن الأخير لا يشرع إلا انطلاقاً من بين من يسهمون بشكل مباشر في إقامة التبليغ ومن بين الآخرين، والعناصر الوحيدة التي تحمل معلومة تُعَدّ عناصر ملائمة في اللسانيات"(17).

1-5-2) بم تسمح الملاءمة؟ إن مفهوم الملاءمة يسمح بوضع الانطلاقة، من بين المعطيات التي تَسْنَح لتجربة اللساني، بين ما سيضعه في القلب المركزي لدراسته وما سيبعده في ميادين هامشية "تقود إلى تحليل صارم لوقائع لسانية وإلى تعيين حدود دقيقة لمستويات مختلفة للفونولوجيا والمورفولوجيا والسانتكس، وكذا مستويات النحو اللكسيك، إلى جانب ما يختص بعلم الدلالة والأسلوب، فضلاً عن التعيين والتضمين (اقتران معانٍ بلفظة ما)(18).

وتعدّ علّة أو مبدأ الملاءمة هذا الأساس لأي لسانيات حديثة ووظيفية، لأن دراسة لغة بالنسبة إليها تكمن في البحث عن وظائف تؤدّيها من قبل العناصر والأصناف والميكانيزمات (الإواليات) التي تحْدُث بها لمعرفة ما هو ملاءمة مما هو غير ذلك، لأن الكلام الذي هو حقيقة قابلة للملاحظة لا يلتبس بالحقيقة اللسانية، لأن عناصر منها وحسبُ تكون ذات صلة بالموضوع pertinent، ولذا

لوحظ على دي سوسور الذي أسر نفسه في الثنائيات السائدة في عصره أنه لم يصل إلى التمييز الأساس بين وقائع الكلام ذات الصلة بالموضوع على أنها تُعْزى إلى التبليغ وبين الوقائع التي تعدم ذلك، ولم يهتد إلى قصده بأن الفونيمات لها حقيقة لسانية تماماً مثل العلامات والوحدات ذات الوجهين المضاعفين، ولم يُفْضِ إلى التمفصل المزدوج[19].

وبكلمة واحدة، فإن الملائم أو المطابق (ما هو ذو صلة بالموضوع) le pertinent من الناحية اللسانية هي عناصر السلسلة الكلامية التي حضورها غير مُسَبَّبٍ آلياً من قبل السياق حيث تظهر هذه العناصر، مما يمنحها وظيفة إعلام، ومن جرّاء وظيفتها أن عنصر ملفوظ تُضْفَى عليه الصفة اللسانية[20].

1 – 6) قواعد أخرى للتحليل البنيوي

1-6-1) قاعدة التبديل Règle de commutation: عملية تلعب دوراً قاطعاً في التحليل البنيوي، وخاصة في المستوى الفونولوجي، بل كذلك في المستوى السانتكسي، وحسب جاكبسون فإنّ التبديل la commutation يكمن في تبديل مقطع صوتي في كلمة مقطع une tranche آخر مؤكّداً atteste في اللغة نفسها بحيث يُحَصَّل على كلمة أخرى في اللغة"[21] وهذه العملية ضرورية لاستخراج أو استحصال وحدات مُمَيَّزَة أو فونيمات مذكّراً أن الفونيم مجموعة الخصوصيات الصوتية يتميز بوساطتها صوت لغوي معطى عن سائر أصواته الأخرى بوصفه وسيلة مستخدمة لتمييز المداليل لكلمات (جاكبسون)، واختبار التبديل يكمن في تعديل صوتي للدال (صورة سمعية) الذي يؤدّي إلى تعديل في المدلول (تصوّر)، مثلاً إذا بدَّلنا الفونيم الاستهلالي أو البدئي /C/ في Coup بـ/L/، فإننا نحصل على كلمة جديدة هي Loup (ذئب) والتي لها معنى مختلف تماماً عن Coup (ضربة مثلاً)، وعمليات أخرى ممكن حدوثها أيضاً على المستوى المورفولوجي والسانتكسي مثال ذلك إذا أخذنا التركيب le syntagme

« il est certain que Samir s'arrêtera » (من المؤكد أن سميراً سيوقّف)، فإن s'arrêtera يمكن أن تكون مبدّلة مع s'arrêterait (كان سيتوقف)، فهذا التبديل السانتكسي يغير المعنى أو يعدّله للتركيب مروراً من المؤكّد إلى الشرطي l'hypothèque.

2-6-1) الاستبدال la substitution : وهنا يجب أن نبدي ملاحظة مهمة تخصّ أنّ التبديل la commutation ينبغي ألاّ يُلْتَبس بـla substitution، لأنه إذا كانا هما هما على مستوى العملية، فإن الأمر يتعلق بأنه في كل مرة نضع وحدة في السلسلة الكلامية بدلاً من وحدة أخرى، فإن غرضيهما leurs objectifs متعارضان opposés: إحداهما تستلفت نظرنا إلى الفوارق اللسانية وأخراهما تستلفتنا إلى التشابهات، ففي المثال التالي للاستبدال " le feu s'est déclaré" (النار اندلعت) والمثال الثاني "l'incendie s'est déclaré" (الحريق اندلع)، حيث كلمة "الحريق" في الجملة الثانية استبدال في كلمة "النار" لكن فقط يشير إلى الحقيقة نفسها (النار = الحريق) بمعنى أن هذا الاستبدال استخدم للدلالة به على التشابه الدلالي بين الوحدتين الاثنتين الحريق والنار.

3-6-1) الإبدال la permutation : وبالمثل، ينبغي ألاَّ نخلط بين التبديل la commutation والإبدال permutation: أحدهما يَتِمّ على المحور الإبدالي وآخرهما يُنجز على المحور التركيبي، فالإبدالla permutation إجراء اختبار يرتكز على تعديل أو تغيير الترتيب في عناصر على السلسلة الكلامية، والأمر يتعلق هنا بالمحور التركيبي، مثال ذلك أننا حين نُبْدِلُ الفونيمتين /P/ و/T/ في "POT" (وعاء) نحصل على "TOP" (دَقَّة) أي وحدة مختلفة، وعملية الإبدال غرضها أن تسمح لنا من التحقق بأن الترتيب لفونيمات له قيمة لسانية وليس ترتيباً جزافياً.

ونستطيع كذلك أن نقوم بإجراء أو مباشرة اختبار الإبدال في نظام أو ترتيب ordre مؤلّفات جملة، غير أنه في هذه الحالة الأخيرة، إذا ما اكتفينا

بترتيب جديد ممكن في اللغة، فإن معنى الجملة لن يكون مُغَيَّراً، فمؤلفات الجملة:

- Omar éprouve immédiatement une très grande satisfaction.
- شعر عمر حالاً بارتياح كبير

يمكن أن تكون مُبْدَلَة permutés في نظام أو ترتيب مختلفٍ، مثلاً "حالاً عمر شعر بارتياح كبير، دون وجوب أن يكون المعنى مُغَيَّراً.

ومن القواعد الثلاث السابقة يتبيّن لنا أن التبديل والاستبدال والإبدال ذات وظيفة متباينة، ولكنها تمثل كلها فائدة، خاصة على مستوى التحليل البنيوي.

إحالات البحث:

1- محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، ط1984/1، بيروت، ص: 145 – 147.

2- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط1981/2، بيروت، ص: 193.

3 - Clefs pour la linguistique, George Mounins, Seghers. Editions de Minuit, 1970 p : 260 – 261. – يراجع مثلاً

4 - Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson, D. Coste. Hachitte, 1975, p : 532.

5- ينظر: الظاهر والمختفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي)، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجماعية (الجزائر)، ص: 47.

6 - Dictionnaire de la linguistique, p : 308. G. MOUNIN ينظر:

7 - Dictionnaire de la linguistique, sous la direction de Georges Mounins, Presses Universitaires de France, 1974, p : 79 – 80 – ينظر:

8- مِنْ النبهاء عندنا مَنْ يرفض هذه النسبة (بنيوي) مفضلاً عليها "بِنَوِيّ" قياساً على "قرويّ".

9 - Révolution en linguistique, Robert Laffon, Grammont, 1976.

10 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 528 – يراجع مثلاً:

11- راجع مثلا: المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 63.

12- الكتاب: سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ج 1/ ص: 23.

13 - Révolution en linguistique, p : 87.

14- المرجع نفسه، ص: 87 – 88.

15- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 145.

- يراجع: 16 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 274

17 - Révolution en linguistique, p : 88 – 90.

18 - Initiation à la linguistique, p : 38.

19- يراجع المرجع نفسه، ص: 38.

20 - Eléments de linguistique générale, André Martinet, Armand Colin, 1988, Paris p : 33, :أنظر -

21 - Révolution en linguistique, p : 90.